دور المنظومات العقدية في تثبيت ونشر الأشعرية بالجزائر
(المنظومة الجزائرية لأحمد بن عبد الله الجزائري أنموذجا)

أ/لحلح الزهراء

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله وعلى أهله وصحبه ومن ولاه

أما بعد فقد عرف المغرب الإسلامي امتدادا حقيقيا للاتجاهات الكلامية والحياة الثقافية بالمشرق الإسلامي، حيث أسهم بعلمائه ومراكزه العلمية في حركة إبداعية تتسم بالعمق والجدية في بعد شديد عما يردده الكثير ويعتقده الأكثر من أن الفعاليات الثقافية ببلاد المغرب شكلت رجع صدى لما هو في مصادر التراث الإسلامي من أراء المدارس الكلامية الشرقية دون أن تحمل في ذاتها أي قيمة علمية ومحل الشاهد في قناعتنا حول موضوع الساحة الثقافية ببلاد المغرب,القرن التاسع الهجري والذي يشهد على رسوخ الحركة الفكرية في المجتمع المغربي عموما والجزائري خصوصا من خلال أعلام كثر في كل مجالات الحياة العلمية والأدبية والتاريخية والكلامية....على الرغم من اضطراب الوضع السياسي والاجتماعي المحيط بكل تلك الإسهامات مما يبين أن هذه الأخيرة ليست فحسب امتدادا حتميا لنظيرتها في المشرق بل هي ضرورة وحتمية فكرية نابعة من صميم العقلية المغربية ومنه تتضح معالم أهمية هذه الدراسة على النحو الآتي.

أهمية الدراسة:

تكتسي هذه الدراسة أهميتها من حيز نطاقها وهي الدراسات الكلامية بالمغرب عموما والجزائر خصوصا التي ظلت زمنا طويلا رهينة تهم القصور التي تطال أهلية أعلامه عن ممارسة الفعل الثقافي بنفس العمق والثراء الذين عرفتهما الدراسات الشرقية لذا فأهمية الدراسة ترجع إلى محاولة اختبار مدى صدق المقولات المتعلقة بالدراسات الكلامية المغربية ومحل شاهدنا هو أحد أعلام الفكر الكلامي بالجزائر.

إشكالية الدراسة:

أما إشكالية الدراسة فيمكن معالجتها ضمن سؤال رئيس وهو ما دور المنظومة الجزائرية لصاحبها أحمد بن عبد الله الجزائري في الدفاع عن العقيدة الأشعرية ونشرها بالجزائر وعن هذا الإشكال الرئيس تتفرع تساؤلات فرعية تنظم مسار الدراسة وتمنهج نطاقها وهي:

-من هو الشيخ أحمد بن عبد الله الزواوي؟

-ما هي القيمة العلمية للشيخ داخل المشهد الثقافي المغربي عموما والجزائري خصوصا؟

-ما هي البدايات التاريخية للمذهب الأشعري بالجزائر؟

-هل عرف الإنتاج الكلامي الجزائري غير المنظومة الجزائرية كأعلام أسهموا في تعميق المذهب الأشعري بالجزائر؟.

-ما هي المسالك الاستدلالية ومزايا المنظومة الجزائرية والتي مكنتها من نشر المذهب الأشعري بالجزائر؟.

منهج الدراسة:

أما عن منهج الدراسة فقد اقتضت الدراسة اعتماد المنهج التحليلي بغية تفكيك النصوص وتحليلها وتقصي دلالتها والوقوف على إسنادها ,وكذا المنهج التاريخي بغية وضع الأفكار في إطارها التاريخي ,وكذا المنهج الاستقرائي للضرورة المنهجية الكامنة في تقصي أفكار وأراء الشيخ من خلال منظومته والتي كانت وراء نشر وتثبيت المذهب الأشعري بالجزائر.

خطة الدراسة:

ولقد قسمت هذه الدراسة ووزعت مادتها وفق ما يلي:

مقدمة

المبحث الأول: الشيخ أحمد بن عبد الله الزواوي وعصره.

المطلب الأول: حياة أحمد الزواوي

المطلب الثاني: آثاره

المطلب الثالث: عصر أحمد الزواوي

المبحث الثاني: المنظومات العقدية الأشعرية بالجزائر

المطلب الأول: تاريخ المذهب الأشعري بالمغرب الإسلامي

المطلب الثاني: المنظومات العقدية الأشعرية بالجزائر

المبحث الثالث: مزايا وأساليب المنظومة الجزائرية في نشر المذهب الأشعري

المطلب الأول: تحصيل اليقين بالنظر والبرهان

المطلب الثاني: توشيح الأدلة العقائدية بالمعاني الذوقية

خاتمة

المبحث الأول: الشيخ أحمد بن عبد الله الزواوي وعصره:

سنعمد بإذنه تعالى من خلال هذا المبحث إلى تقديم شخصية صاحب النظم وبيان أحواله من حيث المولد والنشأة وشيوخه

وتلاميذه ,ومن ثم آثاره بحكم العطاء المتميز لهذه الشخصية الجزائرية، كما لا يخلو هذا المبحث من الإحاطة السياسية والثقافية والاجتماعية بعصر الشيخ الزواوي بغية وضع الأفكار في إطارها التاريخي واختبار مدى اتساقها ومفارقتها للخصوصية الثقافية المميزة لواقع عصره

المطلب الأول: حياة أحمد الزواوي:

أولا: اسمه، مولده ووفاته:

هو شهاب الدين أحمد بن عبد الله الزواوي الجزائري المالكي والزواوي نسبة إلى زواوة قبيلة كبيرة بظاهر أعمال بجاية، وقد ذكر ابن خلدون أن الزواوة بالواو في بطون كتامة وهم من أبناء سمكان بن يحي وهي قبيلة معروفة نسب إليها الكثير من الأعلام فالمقرئ أبو العباس الزواوي وغيرهم، ولد سنة ست أو سبع وثمانين وتسعمائة 786هأو 787هـ اشتهر بالجزائري نسبة إلى مكان إقامته الجزائر العاصمة[1].

وذكر الحفناوي أن الشيخ الزواوي كان من أعظم العلماء إتباعا للسنة وأكبرهم حالا في الورع وكان يشير بأنه ينبغي لمن وسع الله عليه من الدنيا أن يظهر عليه أثر نعمة الله تعالى باستعمالها على وجه .....ولا يخل بالحق ولا بالحقيقة بأن يلبس أحسن لباس جنسه أو وسطه ويتخذ موقعه إن أمكنه، بجعلها عدته وأصل لباسه فما داما غنيا عنهما استغنى وإلا فهي المرجع عنده، وذكر أنه يعد من العلماء الصلحاء ونظيرا للشيخ عبد الرحمان الثعالبي علما و عملا، واشتهر بإقامة زاوية له بمدينة الجزائر باسمه خارج السور الغربي لباب الوادي[2].

وقد جاءت شهرة الشيخ الزواوي عن طريق قصيدته في التوحيد المعروفة بالمنظومة الجزائرية، والتي تسمى أحيانا (الجزائرية) فقط وهي التي تداول على شرحها علماء كثر مثنين على صاحبهما رغم حداثة سن ناظمها حينها، حيث كان في مقتبل العمر، حيث نجد من المحتفين بها الإمام بن يوسف السنوسي، الذي شرحها وأثنى عليها في حياة صاحبها حيث أرسلها له الناظم نفسه طالبا منه شرحها ففعل وأجاد، أما الطريق الثاني الذي اشتهر به وعن طريقه الشيخ الزواوي، فهو إقامة زاوية باسمه في مدينة الجزائر وأصبحت فيما بعد مدفنا لعديد من العلماء، ويمكننا أيضا أن نضيف إلى طرق شهرة الشيخ الزواوي كونه من تلاميذ الثعالبي الذي سيأتي ذكره حين تعرضنا لشيوخه، وقد كان أيضا يلقب بالقطب وهو لقب صوفي لا يناله إلا من تدرج في مدارج الطريقة وشهد له الناس بالصلاح، توفي سنة884هـ[3].

ثانيا: شيوخه وتلاميذه:

أ/الشيوخ:

---

[1] _ أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم: عبد الحميد عبد الله الحرامة [طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية 1989]، ج1، ص 127 وابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، [بيروت، ط2، دار الفكر، دت]، ص 120.

[2] _أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برحال السلف، تحقيق خير الدين شترة، [بوسعادة، د ط، دار كردادة بوسعادة، 1433هـ، 2012م]، ج1، ص 530 وأنظر محمد بن يوسف المرزوقي، [الجزائر، د ط، دار الهدى، دت]، ص 11، وقد ذكر المحقق أن ولادته كانت سنة 800هـ.

[3] _ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، [بيروت، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1998]، ج1، ص 93.

لم تذكر كتب التراجم من شيوخ لأحمد الجزائري سوى علما واحدا أخد من علمه وهو من علماء الجزائر ومفاخرها الإمام عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجعفري ولد سنة 786هـ-1385م بناحية وادي يسر على نحو ست وثمانين كيلومتر بالجنوب الشرقي من عاصمة الجزائر وهو موطن أبائه وأجداده الثعالبة، عكف الثعالبي في حياته على التدوين والتأليف وله في ذلك الباع الطويل فلقد ترك ما يزيد عن التسعين مؤلفا بين رسائل وشروح وحواشي وتعاليق وكتب مستقلة في الوعظ والرقائق والتفسير والفقه منها كتاب الجواهر الحسان في تفسير القرآن، وروضة الأنوار ونزهة الأخيار، ولم يزل رحمه الله عاكفا على الطاعات متجردا عن الدنيويات إلى أن وافاه أجله يوم 23 رمضان 875هـ مارس ، وكان فيمن رثاه من العلماء تلميذه الشيخ الزواوي بمرثية بليغة سنعرض لها حال ذكرنا لأثاره[1].

ب/تلاميذه:

باستقرائنا لمصادر ترجمة الشيخ الزواوي، يمكننا العثور على تلميذين عظيمي الشأن يتميزان بغزارة الانتاج وفيض الخصال الحميدة وكلاهما أخذ عن الشيخ الزواوي رحمه الله.

-محمد بن يوسف السنوسي: هو أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي (832هـ-895هـ) (1490م-1428م) من أعيان علماء الجزائر في علم التوحيد والكلام، كان رحمه الله واسع الإطلاع على علوم الإسلام وهو ينتسب إلى قبيلة معروفة بالمغرب الأوسط من أرض الجزائر غربا "يعرف أهلها ببنى سنوس من تلمسان له من التأليف ما يزيد عن الخمسة والأربعين مؤلفا في فنون مختلفة، منها عقيدته الكبرى التي سماها عقيدة أهل التوحيد ثم شرحها أيضا وكذلك الصغرى، أخذ العلم عن الشيخ عبد الرحمن الثعالبي والشيخ الزواوي الذي قام بشرح منظومته في علم العقيدة وسماه المنهج السديد في شرح كفاية المريد، توفي يوم الأحد 12 جمادى الآخر 895هن 1490م وله من العمر 63 سنة[2].

-الشيخ أحمد زروق:

هو العلامة والصوفي الفقيهمن أعيان علماء الجزائر ولد يوم 28 محرم 846 هـ كان له من الشيوخ الإمام الثعالبي والشيخ الزواوي ينص قوله: «كان شيخنا أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائري من أعظم العلماء إتباعا للسنة وأكبرهم حالا في الورع وكان يشير علينا بأنه ينبغي لمن وسع الله عليه من الدنيا أن يظهر عليه أثر نعمة الله تعالى»[3].

المطلب الثاني: آثاره:

لم تقع أيدي المهتمين بفكر وانتاج الشيخ الزواوي إلا على مؤلفه الشهير كفاية المريد في علم التوحيد (المنظومة الجزائرية) والثانية القطعة الشعرية التي نظمها حين وصول شرح السنوسي لمنظومته أما الثالثة فهي القصيدة التي رثى بها شيخه عبد الرحمن الثعالبي وكذا أبيات في الشكوى من الأحوال العسيرة التي ألمت بالجزائر وأحالت رغد العيش بها إلى ضنك ساءت معه حال المال

---

[1] _ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، [الجزائر، د ط، شركة دار الأمة، 2009م]، ج2، ص 365.

[2] _ المرجع نفسه، ص 63.

[3] _ الحفناوي، تعريف الخلف...، ج1، ص 667 والسنوسي، المنهج السديد، ص 11.

والعيال[1].

أولا: كفاية المريد في علم التوحيد:

لقد اختلف في تسمية هذا المنظوم بين أقلام المتصدين لترجمة الشيخ الزواوي حيث يوردها التنبكتي بمسمى "اللامية أما إسماعيل بن محمد البغدادي فيسميه تارة "الجزائرية في العقائد الإيمانية "وتارة أخرى "لقصيد في علم التوحيد"[2] أما آخر الأسماء وأشهرها فهو "كفاية المريد في علم التوحيد" وهي التسمية التي اوردها السنوسي في شرحه للمنظوم «وإن من أفضل ما ألف فيه من المختصرات المغنية عن كثير من المطولات منظوم الشيخ الفقيه الإمام قدوة المتقين الولي العلامة علم الأعلام السيد أبي العباس أحمد بن عبد الله الجزائري أعلى الله درجته بلا محنة في دار السلام....وقد دعاني إلى شرح هذا النظم المبارك بعث مؤلفه رضي الله عنه تعالى بنسخة منه بخطه إلى....وسميته بما أشار إليه المؤلف رضي الله تعالى عنه من التسمية المباركة المطابقة إن شاء الله تعالى وهي التسمية ب:"المنهج السديد في شرح كفاية المريد»[3] وهذا ما يفيد موثوقية نسبة النظم للشيخ الزواوي ويعضده من جهة أخرى الأبيات التي مدح بها شرح السنوسي لمنظومته .

شرح الكفاية أيها المتدّين تحصيله فرّص عليك معين.

ولقيمة هذا النظم المتكون من 357 بيت فقد تنافس الشراح لبيان محتواه وهذه الشروح كالآتي:

أ-المنهج السديد في شرح كفاية المريد:

وهو من إنشاء محمد بن يوسف السنوسي بطلب من الشيخ الزواوي حيث يقول: «وقد دعا إلى شرح هذا النظم المبارك بعث مؤلفه رضي الله عنه تعالى بنسخة منه بخطه إليّ وبمكتوب أرى امتثاله واجبا علي»[4].وهو الشرح الذي حققه الأستاذ مصطفى مرزوقي

ب:مختصر شرح الجزائرية للشيخ أحمد بن تركي بن احمد المنشليلي المصري علم من فقهاء المالكية ت 979هـ

ج- اللوامع الألمعية في شرح المنظومة الجزائرية للشيخ محمد الجوهري الخالدي.

د-شرخ الخاني لشيخ قاسم بن صلح الدين الخاني 1900م

هـ- فتح المجيد لكفاية المريد شرح اللامية الجزائرية في العقائد والتوحيد للشيخ عبد السلام بن إبراهيم القاني المصري، شيخ المالكية بمصر سنة 1078م.

---

[1] _ السنوسي، المنهج السديد...، ص 12 وذكر بعض الباحثين أن للشيخ مصنف آخر هو تذييل على الكواكب الذرية في مدح خير البرية وهو موجود كمخطوط في المتحف البريطاني تحت رقم 622، بن خريف علاء، لورغي أحلام، كفاية المريد في علم التوحيد دراسة وتحقيق [قسنطينة، مذكرة ماستر، كلية أصول الدين، 1434هت-2013م]، ص 18.

[2] _ إسماعيل بن محمد البغدادي، هدية العارفين، [استانبول:وكالة المعارف الجليلة، د ط، 1951م]، ج1، ص 136 والتنبكتي، نيل الابتهاج، ج1، ص 127.

[3] _ السنوسي، المنهج السديد، ص 22، 23.

[4] _ المصدر نفسه.

و_منهل التوحيد على كفاية التوحيد: محمد خليفة المدبوني وهو مخطوط بدار الكتب الوطنية تونس، تحت رقم 1784م[1].

وقد ابتدأ هذا النظم ب:

الحمد لله وهو الواحد الأزل سبحانه جلّ عن شبه وعن مّثل

فليس يحصى الذّي أولاه من نّعم أجلّت نعمة الإيمان بالرسل

من ذا من الخلق يقضي شكر واهبها لو كان يشكر طول الدّهر لم يصل

ثمّ الصّلاة على خير الورى أبدا وصحبه مع سلام طيّب حفل

وبعد فالعلم بالتوحيد مفترض بالاحتلام وعقل غير مختبل

ثانيا: القصيدة التي رثى بها شيخه عبد الرحمن الثعالبي:

وقد نشرت بعض أبياتها في مقدمة كتاب العلوم الفاخرة للشيخ الثعالبي في أوائل القرن العشرين حيث نشرها الحفناوي في كتابه تعريف الخلف بقوله: وقال أيضا يرثي شيخه عبد الرحمن الثعالبي [2].

ثالثا: نظم في مدح السنوسي لكفاية المريد في علم التوحيد

رابعا: أبيات في الشكوى من الأحوال التي ألمت بالجزائر فبعد أن كان العيش فيها رغدا وهي أبيات تصور على قلتها بعض أحوال مدينة الجزائر في القرن التاسع

المطلب الثالث: عصر أحمد الزواوي :

أولا: الوضع السياسي:

عاش الشيخ الزواوي في عصر اتسم بالاضطراب وانعدام الاستقرار السياسي بعدما أفل نجم الدولة الموحدية التي استطاعت في أوانها بسط نفوذها على جميع تراب الشمال الإفريقي ابتداءا من البحر المحيط غربا إلى شرقي طرابلس ومن جبال البرانس شرق بلاد الأندلس إلى تخوم صحراء إفريقية الكبرى فكان بذلك أكبر سلطان ومملكة شهدها الإسلام في المغرب بما فيها الجزائر التي لم تكن تطلق إلا على مدينة ساحلية صغيرة قليلة الأهمية ولم تكن تعني بأي حال القطر الجزائري المعروف الآن ليس هذا فحسب بل اعتباره المغرب الأوسط لم تكن نعني بالضبط حدود الجزائر الحالية لعدم انضباط الحدود السياسية التي كانت غامضة غموض حدود الإمارات الإسلامية التي تعاقبت على حكم المغرب العربي.

ولم يزل الموحدين في أوج عزهم حق تفرق شملهم في وقعة العقاب بالأندلس 609هـ-1212م فاضطرب امن الدولة وشق رؤساء العشائر عصا الطاعة فاستبدوا بالإدارة ونما فيهم شعور الفردية إزاء ضعف الدولة الحاكمة وتفككت وحدة الشمال الأفريقي

---

[1] _ بن خريف..، كفاية المريد...، ص 31، 32.

[2] _الحفناوي تعريف الخلف، ج1، ص 531-533.

فاسحا المجال لبروز نفوذ ثلاث إمارات مغربية على نشر نفوذها على المغرب العربي وهي المرينية، الزيانية والحفصية وكلها تحاول الاستقلال وبسط سلطانها عليه [1].

ولتكافؤ القوات أو ضعفها لم يخلص إلى أي دولة من الدول الثلاث وأخيرا توزع بينها فكانت المرينية تحكم ما هو الآن المغرب الأقصى والثانية تحكم ما هو الآن الجزائر والثالثة تحكم ما هو الآن تونس ذلك أن جزءا كبيرا من الشرق الجزائري اليوم بما في ذلك قسنطينة وعنابة وبجاية وبسكرة وتقرت كانت تحت هيمنة الدولة الحفصية وكأنما يعرف اليوم بالغرب الجزائري تحت نفوذ القطر الجزائري الحالي فقد كان منطقة عازلة بين الحفصيين والزيانيين بل كان للطرف الحفصي أيضا "حضور في الصراع مع الزيانيين المجاورين تارة وضد الحفصيين البعيدين عنهم تارة أخرى.

ثانيا: الوضع الثقافي:

لقد كان لهذه الاضطرابات السياسية وتدني المستوى الاقتصادي هجرة بعض العلماء إلى المشرق مثل أحمد بوعصيدة البجائي (ت 865هـ) وربط البعض منهم مصيرهم بعطايا الأمراء في حين أثر البعض الآخر حياة الزهد والانسحاب من معارك الحياة السياسية فخسرت الحياة الثقافية في الجزائر إزاء تلك الهجرة علماء أجلاء مثل أحمد بن يحي الونشريسي [2]. إلى فاس لأسباب سياسية ولنفس السبب هاجر محمد بن عبد الكريم المغيلي [3].البالغ على الحياة الثقافية، حيث شهد القرنمن تلمسان إلى السودان وبذلك تلونت الحياة الثقافية بلون الاضطرابات السياسية فمال السياسيون إلى الاهتمام بشؤونهم الخاصة والعلماء إلى الانعزال فذب التشاؤم في نفوس الناس، ووسط هذه الصورة المضطربة كانت هناك بعض المدن تنمو بمدارسها ومساجدها ثقافة يتغذى منهاالمجتمع روحيا وعقليا مثل قسنطينة وبجاية ومازونة والجزائر وفي كل مدينة من هذه المدن برزت عائلات اشتهرت بالعلم والتأليف والدرس أو بالزهد والتصوف ومن هذه القائلات عائلة العقباني[4] في تلمسان وعائلة

ابن باديس والقنفد في قسنطينة وعائلة المنجلاتي[5] في بجاية والشيخ إبراهيم التازي كما عرفت الجزائر زاهدها وعالمها عبد الرحمن الثعالبي الذي عاد إلى الجزائر العاصمة بعد رحلته ليمكث بها ويحيلها إلى مركز إشعاع للعلم والمعرفة وقد تخرج على يديه علماء أجلاء كتلميذه أحمد بن عبد الله الجزائري صاحب المنظومة الجزائرية التي تصدى لشرحها الشيخ السنوسي وهو من نجوم العلم والمعرفة بهذا القرن، ولم يقتصر التصنيف على أولئك الأعلام فحسب بل إن القرن قد انجلى عن تصانيف جليلة مثل (إظهار صدق المودة في شرح قصيدة البردة) لابن مرزوق، أما في علم الكلام فنجد (منظومة المراصد لابن زكريا لتلمساني)وكذا كتب

---

[1] _أبو القاسم سعد الله، تاريخ...، ج1، ص 39 والجيلالي، تاريخ الجزائر، ج2، ص 21.

[2] _ أحمد بن يحي الونشريسي المعروف بأبو العباس الونشريسي (834هـ/1430م) (904هـ/1509م) فقيه ومصنف تلمساني المنشأ والأصل أشعري العقيدة مالكي المذهب من آثاره المختصر من أحكام البرزتي الحفناوي، تعريف الخلف، ج1، ص 430.

[3] _ هو محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني التواتي وقعت له أمور مع فقهاء عصره قام على يهود توات وألزمهم الذل وهدم كنائسهم ونازعه في ذلك الفقيه عبد الله العضوني قاضي توات وراسلفي ذلك علماء وقته فكتب إليه التنسيووافقه على ذلك الإمام السنوسي ت 909، التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 330، 331.

[4] _ هو محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني التلمساني، أحد معاصريالسنوسي هو فقيه ينزع إلى التصوف له عدة مصنفات".تحفةالناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر] توفي سنة 871هـ، محمد عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور [الجزائر، د ط، المؤسسة الوطنية للكتباب، 1984]، ص 224.

[5] – علي بن عثمان المنجلاتي الزواوي البجائي من علماء المالكية أخد عن الشيخ عبد الرحمن الوغليسي وهو والد العلامة أبي منصور مفتي بجاية قال عنه الثعالبي شيخنا أبو الحس الإمام الحافظ التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 11.

السنوسي (حط النقاب لابن قنفد كما ألف الشيخ الحباك في علم الاسطرلاب والهندسة منظومة (بغية الطلاب

فكان التعليم بجميع مستوياته منتشرا في المدارس والمساجد وفي الزوايا التي أخذت تنتشر وكانت حلق الدروس حول كل أستاذ مشهور في المدرسة أو في الزاوية هي المنهل الذي ينهل منه تلاميذ وطلاب القرن التاسع وهو نفسه المنبع الذي ظل يغدي أجيال المتعلمين بثقافة تقليدية غلبت عليه الروح النظرية ....أصحاب هذا التعليم ألا يخرجوا عن علوم الدين وعلوم العربية، إلا أن زوال الدولة الموحدية قد ساعد على الاعتناء بالروح الفقهية فنشأت بذلك مدارس متعددة كمدرسة القيروان التي اعتنت بالفقه المالكي خاصة وتمشيا مع الضعف السياسي فقد تبع ذلك سطحية التعليم، ومع ذلك فإن بعض العلوم العملية قد ظلت حية لا سيما في تلمسان وقد كان لهجرة الأندلسيين الأثر البالغ على الحركة العلمية والثقافية بالجزائر علما أن القرن التاسع الهجري كان من أكثر القرون التي شهدت موجات الهجرة حيث ارتاد الأندلسيون ميدان التعليم في المغرب العربي ناقلين بذلك أنساقهم العلمية في تلقين العلوم، من ذلك عدم الاقتصار في تعليم الأطفال على حفظ القرآن، بل إنهم لقنوا معه الحديث والقواعد العامة كما علموا روايات القرآن وأنواع قراءاته أما التعليم العالي فقد كان يتلقى في المساجد والزوايا ودور العلماء بمجالس المناظرة وكان التعليم يعتمد في أغلب الأحيان على النقل والرواية.

ومن أبرز ما تميز به القرن التاسع الهجري أيضا "ظهور عقيدة المرابط لانتشار الزوايا وافتتاح عهد التصوف العملي الذي عمق وجوده إلى ما بعد هذا القرن فنجده حاضرا حتى القرن 12هـ ولا شك أن ضعف الدولة أمام التصدع الداخلي والخطر الخارجي، ولسنا حتما نقيم الربطبين التصوف كرغبة وسلوك روحي وبين مبررات الضعف لكن المبالغة في الاعتقاد في الشيخ والالتفاف حول ضريحه كل هذه الأمور تكاد تكون وليدة القرن التاسع الهجري وما بعده، والواقع أن هذا الواضع قد لاقى تشجيعا كبيرا لدى الملوك الزيانيين، فمن ذلك ما روي عن السلطان أحمد العاقل(834هت-866م)الذي كانت له عناية عظيمة بالولي أبو علي الحسن بن مخلوف وكان يكثر من زيارته والاقتباس من بركاته ومدار أكثر أموره عليه، وكذا فعلت العامة في هبتها نحو الشيخ للتخلص من ظالم ولاستجلاب منفعة أو تفريج كرب حتى كان القوم يتباهون بزيارة لأضرحة[1].

من خلال ما تقدم من مادة هذا المبحث نخلص إلى أن الشيخ الزواوي من الشخصيات الجزائرية المنتجة والمؤثرة في الواقع الثقافي على الرغم من الاضطرابات السياسية والاجتماعية التي عايشها الشيخ وتأثر بها.

ثالثا: الوضع الاجتماعي:

لقد كان للحالة السياسية المضطربة انعكاس وأثر بالغ على الأوضاع الاجتماعية بالقرن التاسع الذي شهد كثرة الحروب وتنازع الدويلات والأسر على الإمارة إلى انفراط عقد النظام والأمن خاصة وأن تلك الحروب المدمرة قد أفضت إلى إنهاك الجانب الاقتصادي فتفشى الجوع وغلاء الأسعار وكثرت اللصوصية وقطاع الطرق فارتخى حبل الأمن فعمت الفتنة يومئذ جميع بلاد المغرب الأوسط-الجزائر-خاصة إبان الحرب التي تأججت بين بني مرين ضد الأمير أبي حمو حاكم تلمسان واستمرت الحرب متأججة أكثر من السلطان إلى أن استب الأمر إلى أبي حمو الثاني، ويذكر المؤرخون أن هناك ريحا عاصفا هو جاء هبت في تلك المدة على المغرب الأوسط فأهلكت الحرث والنسل فانتشرت المجاعة بالجزائر فأكلت الأخضر واليابس ويومئذ تصدق السلطات بنصف جباية خزينة

[1] -ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، [بيروت، ط3، دار الغرب الإسلامي، 1987م]، ص 327 وأنظر أبو القاسم سعد الله، تاريخ، ج1، ص 45، 46.

الدول على الرعية وفتح أبواب خزائنه الخاصة للمحتاجين، وعلاوة على ذلك فقدان تلك الحروب إلى تعدد العناصر وامتزاج الشعوب المتباينة الأعراق والجهات وهذا بفعل الهجرات المتتالية على المغرب الأوسط، ليس هذا فحسب بل إن الطوائف المسيحية واليهود كانت من ضمن تلك الأطياف الاجتماعية التي عمل ملوك تلمسان على توطينها بان خصصوا لهم سكنى قريبة من قصورهم وتمتع هؤلاء بالحماية التي منحتها الشريعة الإسلامية لأهل الذمة، كما عرف القرن تجاور السكان الأصليين والتجار الإيطاليين والفرنسيين والأتراك والأندلسيين وقد أفضى هذا التعدد إلى اختلاف العادات والأخلاق والأعراف الذي بدوره اسم في رسم صورة اجتماعية ملؤها الفوضى والاضطراب حتى في تزييف العملة حتى كادت رؤوس أموال الناس تنقرض من أيديهم[1].

المبحث الثاني: المنظومات العقدية الأشعرية بالجزائر لا يمكننا بحال من الأحوال الحديث عن دور المنظومة الجزائرية في نشر المذهب الأشعري وآرائه بالجزائر دون الحديث عن دخول هذا المذهب إلى الجزائر لمعرفة الحالة الكلامية والعقدية ببلدنا حينها ومن ثم التعرض إلى ذكر بعض النماذج الأشعرية على مستوى النظم الكلامي حتى يتبسر لنا دراسة مضامين المنظومة الجزائرية ضمن الأنساق الفكرية والمذهبية المحيطة بها وهذا ما سنشرع بتوضيحه ضمن المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: المذهب الأشعري بالمغرب الإسلامي:

أولا: المذهب الأشعري بالمغرب الإسلامي:

تشكل تاريخ العقيدة الأشعرية أحد الثوابت الدينية التي استقر عليها المغاربة منذ اماد بعيدة بالموازاة مع الفقه المالكي والتصوف غير أنه لا يمكننا الجزم بقطيعة البدايات الدقيقة لدخول الأشعرية إلى بلاد المغرب، وإن كان مما لا يشكك فيه على الأقل أن أهل المغرب قد عرفوا هذا المذهب منذ وقت مبكر قد يكون فيعهد المؤسس نفسه أبو الحسن الأشعري والمقصود هنا بالمعرفة أي انتشار العلم به لا انتشار اعتناقه أي اعتناق الطريقة الأشعرية في التصور العقدي الذي كان موجودا بالمغرب في حدود آحاد الأفراد، وهو الرأي الذي يجد فيه البعض مجانبة للصواب باعتبار الدور الريادي للقيروان كمناخ فكري مهيأ لبسط المذهب الأشعري وهيمنته على بلاد المغرب في سياق يقترب كثيرا من القطيعة حيث يذكر الكوثري دانت للسنةعلى الطريقة الأشعرية أهل البسيطة إلى أقصى بلاد إفريقية وقد بعث الباقلاني[2] في جملة من بعث من أصحابه إلى البلاد أبا عبد الله الحسن بن عبد الله حاتم الأذري[3] إلى الشام ثم إلى القيروان وبلاد المغرب فذان له أهل العلم من أئمة المغاربة وانتشر المذهب إلى صقلية الأندلس»[4] والمستفاد منه آن القيروان مثلت المركز الأساسي بالمغرب لاحتضان المذهب الأشعري ونشره قبل منتصف القرن الخامس حيث كان الطلبة دائمو الأهبة لشد الرحال صوبها بغية التلقي والمدارسة سواء مما أنتجه علماؤها أو ما تم تلقيه من علماء المشرق ودوائره[5].

---

[1] – الجيلاني، تاريخ الجزائر، ج2، ص 258 وانظر خليفي الشيخ النظر العقلي عند محمد بن يوسف السنوسي، (قسنطينة، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2003م]، ص 27.

[2] – هو أبو بكر بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المالي الأصولي المتكلم ولد بعد النصف الثاني من القرن الرابع الهجري سمع الحديث من**372هـ** عبد الحي بن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب]، ج3، ص 169.

[3] – هو أبو عبد الله حسن بن عبد الله بن حاتم الأذري بفتح الهمزة وفتح الذال نسبة إلى أذربيجان وهو نزيل القيروان المتكلم الأشعري تلميذ القاضي الباقلاني، قدم إلى المغرب واستوطن به إلى أن توفي سنة 423هـ ياقوت بن عبد لله الحموي، معجم البلدان، [بيروت، دط، دار الفكر، د ت].

[4] – محمد زاهد الكوثري، مقدمة تحيق كتاب ابن عساكر، تبيين كذب المفتري فيما يناسب إلى الإمام الأشعري [دمشق، دط، مطابع القدس، 1347].

[5] – عبد المجيد النجار المهدي بن تومرت[بيروت، ط1، دار الغرب الإسلام، 1403هـ، 1982م]، ص 42.

ويعد إبراهيم بن عبد الله الزيدي المعروف بالقلانسي(359هـ/361) [1]أول من سعى لتوطين الأشعري التي عمل على إذاعتها بالقيروان هذا بالإضافة إلى شخصيات أخرى لا تقل أهمية عنه في تفعيل المذهب الأشعري بالمغرب وهو أبى ميمونة دارس بن إسماعيل الفاسي(ت 357هـ/967م) حيث تلقى الأشعرية بالمشرق ثم انتقل إلى القيروان لطلب العلم إلى أن استقر بفاس وألقى دروس العلم بها.

غير أنه بإمكاننا القول أنه ثمة شخصية من الأهمية بمكان في مسار الأشعرية بالمغرب وهو الإمام الباقلاني الذي كان رأس المالكية بالمشرق بالإضافة إلى أشعريته بما يعني جمعه بين المذهبين الأشعري والمالكي وهو ما دفع بطلبة العلم المغاربة كي ينالوا من فقهه وعلمه عموما، حيث شهد القرن الرابع الهجري حركة نشطة داخل تلاميذ الباقلاني الذين اعتزموا نقل فقه أستاذهم ومذهبه إلى المغرب لنشره ومنهم أبو عبد الله الأذري الذي أرسله الباقلاني لتعليم المذهب الأشعري بالشام ثم القيروان فكان شديد الذكاء والبراعة في الإقناع، ومن تلاميذ الباقلاني كذلك عتيق السوسي وأبي القاسم السيوري (ت 462هـ/1069م) وممن أخذ الأشعرية عن أبي عمران الفاسي أبو محمد بن محمد الصائغ(486هـ/1093م)وهو فقيه مالكي فاضل[2]أمكن لعلمه الغزير ان يبذر واحدامن أكبر أعلام المالكية الأشعرية بإفريقية وهو أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر الهازري (536هت/1141)[3].ويمكن لنا اعتبار الرجل معلم تحول في مسار المذهب الأشعري حيث يمثل مرحلة نضج الأشعرية وعطائهما هذا ما تبديه مصنفاته من حيث وضوح وعمق مقولات الأشعرية بكتبه.

ومنه نخلص إلى أن المغرب بمختلف مناطقه كان لمعهدبالمذهب الأشعري قبل القرن السادس الهجري إلا أن حضور هذا المذهب به لم يتعد استعابه والعلم به دون أن يكون للعامة حظ من اعتناقه أو أن تجري أذهانهم عليه في التصور العقدي سواء في إفريقيا أو المغرب الأقصى والأوسط، وإن كان المغرب الأدنى أو إفريقيا أكثر خطا بهذا المذهب من المغرب لأقصى و الأوسط الذين كان محل دولة المرابطين التي أعاقت تطور الفكر العقدي باتجاه النظر العقلي والتأويل الأشعري وهو المنقول عن المراكشي في قوله:«دان أهل ذلك الزمان [عهد المرابطين] بتكفير كل من ظهر منه الغوص في شيء من علوم الكلام وقرر الفقهاء تقبيح علم الكلام وهجر من ظهر عليه شيء منه وأنه بدعة وربما أدى أكثره إلى اختلال العقائد»[4].

وهذا ما ذهب إليه ابن خلدون أيضا قائلا «كان أهل المغرب بمعزل عن إتباعهم [أي إتباع الأشاعرة] في التأويل وإمداد المتشابهات»[5]..

---

[1] – فقيه متكلم من أصول إفريقية، اشتهر بالرد على الرافضة له كتاب في الإمامة والرد على الرافضة، ابن فرحون، الديباج[القاهرة، د ط، دار التراث دت]، ص 278.

[2]– عبد الرحمن بن محمد الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان،تحقيق: محمد ماضور[تونس، د ط، المكتبة العتيقة، 1978م]، ج3، ص 202.

[3] – النجار، المهدي، ص 438وإبراهيم التهامي، الأشعرية في المغرب [الجزائر، ط1، دار الأمة، 1427هـ-2006م]، ص 13-16.

[4] _عبد الواحد بن علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد ...[القاهرة:، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية 1963من ص 236، 237.

[5] **_ابن خلدون، ديوان المبتدأ** ,ج6، ص 466.

فلما كان القرن السادس الهجري، رجع المهدي بن تومرت[1] إلى المغرب بأشعرية عميقة وانتقد اعتقادات المغرب في إمرارهمالمتشابهات كما جاءت وأذاع بينهم لأخذ بالمذهب الأشعري كما عملت السلطة السياسية في عهده على إنفاذ هذه العقيدة حتى كان لها الظهور وأصبحت المذهب العام لأهل المغرب.

ولئن كانت مؤلفات المهدي قد ساعدت على انتشار الأشعرية بالمغرب وعمقت آرائها بالمجتمع المغربي فإن واحدا منها كان له الدور الرئيسي في إذاعة الأشعرية بالمغرب وتحويل التصور العقدي للدولة الموحدية وهي رسالة وجيزة تبتدأ بعبارة اعلم أرشدنا الله وإياك وقد حررت هذه العقيدة تحريرا بليغا وعرضت فيها المسائل المتعلقة بالإيمان بالله تعالى وصفاته، دون التعرض للسمعيات أو الإمامة وكذا وحدانية الله وخالقيته المطلقة، خضوع الخلائق له، أزلية وجوده، تنزهه عن المكان والزمان، تنزهه عن الشبيه والمثيل، قيوميته، علمه المحيط بكل شيء، قدرته، إرادته، استغناؤه ومشيئته المطلقة وعدله وفضله، سمعه وبصره[2].

إن وجازة المرشدة وبلاغتها وسلامتها من كل مخالفة ظاهرة للآراء الأشعرية ضمن لها الذيوع والانتشار لأنها كانت مرصدا علميا في كل الأوقات وفي مختلف المراكز العلمية بالمغرب ومنها الجزائر التي سنتحدث عن وضع المذهب الأشعري بها من خلال العنصر الموالي:

ثانيا: المذهب الأشعري بالجزائر

يمكن للدارس في التاريخ العقدي للمغرب الأوسط أو ما يسمى حاليا بالجزائر أن يميز ثلاث مراحل في هذا التاريخ:

أ _المرحلة الأولى: وهي تلك المرحلة التي كانت بها الجزائر تقوم في تصورها العقدي على الإيمان بظاهر النصوص وكذا الابتعاد عن مناقشة وتأويل المتشابه وإقرار الصفات وترك الخوض في الكلام جملة فظلوا أوفياء لطابعهم السلفي الواضح في الوقوف عند حرفيه النص، وقد ساهم المذهب المالكي في ترسيخ هذه العقيدة حيث تميز الجيل الأول من تلامذة الإمام مالك بالحيطة والحذر والاكتفاء بالدفاع عن أصول العقيدة وكانت مواقفهم تميلها ردودهم على الخصوم من الفرق الأخرى وقد كان الجزائريون أميل إلى هذا المذهب، هذا بالإضافة إلى الدور الذي لعبته دولة المرابطين التي اعتمدت في نشأتها السياسة ونهضتها القومية على الدين فبسم الدين رسخت قواعدها في الملك فكثيرا ما استعانت بالعلماء في ترسيخ مذهبها ومنهم عبد الله بن ياسين المالكي المذهب مفتي المرابطين فقلده في ذلك المرابطون حكومة وشعبا فأصبحت الحكومة لا تقضي أمرا إلا على وفق هذا المذهب فحاز فقهاء المالكية بذلك تقدما عظيما ومنزلة رفيعة عند الأمراء وغيرهم من أتباع هذه الدولة[3] ونبذ الناس يومئذ النظر العقلي والتأويل ولم يكن لأهل المذاهب الأخرى ظهور بالجزائر إلا في بنطيوس من قرى بسكرة فقد كان بها مسجد واحد للاباضية فدانت الجزائر والمغرب ككل بتكفير كل من أظهر الخوض في شيء من علم الكلام وقرر الفقهاء بمحضر علي بن يوسف بن تاشفين، تقبيح الفلسفة وعلم الكلام والنظر فيهما فهجروا كلمن ظهر عليه شيء بدعوى أنه بدعة وأنه يؤدي إلى اختلاف في العقائد ووهن في

---

[1] _ هو ابن تومرت أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت البربري المصمودي (485هـ-524هـ/1092-1130م) يدعى بالإمام المعصوم المهدي رحل شابا إلى المشرق، ألف عقيدة لقبها ب (المرشدة) فحمل عليها أباعه وسماهم الموحدين توفي آخر سنة أربع وعشرين وخمس مائة،شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط [بيروت، ط3، مؤسسة الرسالة، 1403هـ-1985[، ج19، ص 539.

[2] _النجار, المهدي.., ص 449.

[3] _سالم يفوت "الأشعرية في المغرب" مقال مجلة الفكر العربي المعاصر [عدد 68، 69، سبتمبر 1986م]ن ص 23 وعبد الله كنوز "عقيدة المرشدة للمهدي بن تومرت مقال بمجلة البحث العلمي [عدد 9، السنة 3]، ص 177.

الإيمان لذا نشر أوامره في البلاد وكتبها في كل وقت بالتشديد والوعيد لكل من يشتغل بهذا العلم أو يوجد عنده من كتبه شيء منها فأحرق بذلك كتب الغزالي غير أنه وفي الجزائر ترددت صيحة الاحتجاج الأولى المعارضة لهذا الكبت والحجر على الحرية العقلية والقلبية للأهالي حيث قام أبو الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوى وهو من قلعة بني حماد يتحدى دولة المرابطين لأنه...بلغه فتوى الفقهاء بإحراق كتاب الإحياء وعلم بأمر إحراقه في مراكش بعد وصول كتاب علي بن يوسف السلطان اللمتوني بضرورة تنفيذ القضاء فيه وتحليف الناس بعدم حيازتهم للإحياء، انتصر ابن النحوي للغزالي وكتب للسلطان في ذلك وافتى بعدم لزوم تلك الأيمان وذكر أنه انتسخ الأحياء في ثلاثين جزءا يقرأ منه كل يوم جزءا في رمضان [1].

وهكذا نخلص إلى دور أعلام الجزائر في تحرير العقل واحترام حريته في أمر العقائد.

ب) المرحلة الثانية: عرفت هذه المرحلة من الحياة العقدية بالجزائر أو ما يسمى بالأشعرية المتقدمة أين ارتفع تحريم النظر العقلين فمند أواخر القرن الرابع الهجري بدأ الأثر الأشعري بالجزائر ينتشر شيئا فشيئا، إذ لما بسطالموحدون نفوذهم على المغرب في منتصف القرن السادس الهجري أصبح المذهب الأشعري هو السائد في منتصف إلى منتصف القرن السابع، إذ لما عاد ابن تومرت من المشرق جاء معه بأفكار جديدة في أصول الدين على مذهب الأشاعرة ونشر بينهم النظر العلي في مسائل العقيدة التي كانت محرمة عليهم وذان الناس بمذهب المهدي فأحيوه وتعلقوا به [2].

ومن أعلام الكلام في الجزائر بهذه الفترة علي بن أبي القاسم القسنطيني (519هـ-1125م) وهو أبو الحسن علي بن أبي القاسم محمد التميمي المغربي القسنطيني من أشهر علماء الكلام على مذهب الأشعري وأبو حامد الصغير (ت 580هت-1185م) ببجاية و من أهم تصانيفه كتاب التفكر فيما يشمل عليه السور والآيات من المبتدئ والغايات) وهو كتاب جليل سلك فيه مسلك الغزالي في كتاب الإحياء به أيضا سمي أبي حامد الصغير وكلامه فيه دليل على إحاطته بعلم المعقول والمنقول دله كتاب التذكرة في علم أصول الدين أو النبراس في الرد على مذكري القياس)[3].

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة الأشعرية المتأخرة وتطلق على المرحلة التي أصبح فيها علماء الأشاعرة يتصدون لطائفة الفلاسفة باستعمال المنطق الأرسطي والمقدمات الفلسفية وهذا ابتداءا من أواسط القرن السابع الهجري إلا أنه وعلى الرغم من الخصوبة الثقافية لهذا العصر إلا أن بعض الباحثين ارتأى أن يجعل من هذه المرحلة منعرجا فيما يخص الفكر العقدي بالجزائر والمغرب من حيث اتسمه بالجمود والاكتفاء بالتعاليق والحواشي على المصنفات السابقة وهو الرأي الذي يتبناه النجار مؤكدا على أنه وابتداءا من مؤلفات محمد بن يوسف السنوسي شهد القرن حالة من الجمود والانهيار بحكم أنه لا يكاد يخلو الأمر من شروح لما كتبه الأقدمون من القضايا مع انعدام الجدة وروح المواجهة الحقيقية مفسحة المجال لتاريخية الأفكار محل الصيغة الدفاعية التي قوامها الرّد والإثبات[4]، غير أننا لا نوافق هذا الرأي الذي لم يكن النجار سباقا إليه بل نجده أيضا لدى بعض الكتاب من غير العرب في تأكيد شديد على رسم المرحلة بالتقليدية والجفاف [5].وهذا نظرا لما تم بسطه سابقا من مؤلفات اتسمت بالجدة والإبداع على

---

[1] _ الجبلاني، تاريخ الجزائر، ج2، ص 13-14.

[2] _إبراهيم التهامي، الأشعرية في...، ص 16.

[3] _ الجبلاني، تاريخ الجزائر، ج2، ص 52، 53.

[4] _ عبد المجيد النجار، مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، [بيروت، ط1ن دار الغرب الإسلامي، 1992]، ص 177.

[5] _ لويس غارديه، قنواتي، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، [بيروت، ط2، دار العلم للملايين، 1978م]، ص 140.

شاكلة الوضع الثقافي للعصر هذا من جهة ومن جهة أخرى فالكلام يتسم بالسطحية في التعامل مع أعلام هذه الفترة ويدعو إلى مراجعات كبيرة إلى هذا أيضا ذهب بعض المستشرقين ممن تناولوا تصانيف فترة الجمود على حد تعبير النجار [1].

وتبعا لتوضيح سمات هذه المرحلة نورد ما يلي:

-سيادة أسلوب الحواشي والتقارير الملحقة بالمتون القديمة لتوطين المعتقدات الأشعرية بالمغرب.

-استقرار المدرسة الأشعرية في أغلب مناطق العالم الإسلامي ومنها المغرب الأوسط(الجزائر).

-زيادة التقارب بين علم الكلام والتصوف بحيث أضاف علماء هذه الفترة فصولا صوفية لمؤلفاتهم في التوحيد مثلما هو الحال في المنظومة الجزائرية ومؤلفات السنوسي.

وعلى هذا يمكننا القول أن الفكر الأشعري بالجزائر شهد غزارة كبيرة في التأليف مع التوسع في مناقشة الجزئيات وظهور تفنن منهجي وطرق جديدة في عرض الأفكار بحيث يمكن أن نطلق على هذه المرحلة بالمرحلة السنوسية التي هيمنت كتبه في العقيدة وشروحها على الساحة الفكرية وشهدت إقبالا منقطع النظير من قبل طلبة اعلم والحفاظ والشراح وسادت فيه حلقات الدرس ومجالس العلم في لحواظر والبوادي وأصبحت معتمدا في أخد الإجازات مما دفع البعض إلى اعتبارهما مرحلة مستقلة بذاتها في تاريخ المذهب الأشعري، وقد وسم السنوسي هذه المرحلة بمحاربة التقليد وإحياء الاجتهاد و النظر بعد مقاطعة الطلبة وإعراضهم عن النظر في أدلة التوحيد [2] وهذا تماما ما ابتدأه شيخه أحمد الزواوي.

وإلى حدود هذه الأسطر يمكننا إجمال الحديث المبسوط آنفا بالقول أن تاريخ المذهب الأشعري بالمغرب لم يبتعد العلم به من قبل القرن السادس الهجري وكذا هو الحال بالنسبة للجزائر أما بعدها فقد عرفت بلاد المغرب الجزائر خصوصا أقلام عميقة رسخت الفكر الأشعري وأسهمت في إبراز الاتساق المعرفي والحضور الثقافي للمغرب عموما والجزائر خصوصا.

المطلب الثاني: المنظومات العقدية الأشعرية بالجزائر:

يعتبر إنتاج القرن التاسع الهجري من أوفر إنتاج الجزائر الثقافي ومن أخصب عهودها بأسماء علمائها ومصنفاتهم بحيث فاق عدد العلماء في هذا القرن أعدادهم في القرون الباقية والكثير من إنتاج هذا القرن ظل موضع عناية علماء القرون اللاحقة، وسنركز خلال دراستنا هذه على ما أنتجه الفكر الجزائري في مجال علم الكلام وألحق به في كتبه من الاتجاه الروحي والإهتمام بعلوم الآخرة إذ يعتبر سمة العصر وإنتاجهم فيه أعزر وأقوى.

أولا: منظومة واسطة الملوك في بيان كيفية السلوك:

وهي من نظم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الحوضي (ت 871هـ) من كبار فقهاء المالكية أصولي متكلم ناظم من شعراء تلمسان ولد ونشأ بها واخذ عن شيوخها حيث أخد عن الإمام السنوسي وعن الإمام أبي عبد الله بن العباس العبادي ت 871هـ وكذا أخذ عنه خلق كثير لانشغاله رحمه الله بتعليم الصغار كتاب الله عز وجل ومن أهم العلماء الذين أخذوا عنه سماعا وإجازة أبوجعفر أحمد بن علي البلوي، وللحوضي منظومة (واسطة السلوك) وهو نظم في العقائد عرف فيه جميع مسائل العقيدة:

---

[1] _ جمال الدين بوقلي حسن، الإمام بن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، [الجزائر، د ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م]، ص7.

[2] _ بوقلي، الإمام بن يوسف....، ص 8.

الإلهيات، النبوات ، السمعيات حيث جعلها سهلة، قريبة المعنى يقرأها الصبيان في المكاتب، وهي مؤدية إلى إدراك قضايا التوحيد والدعوة إلى النظر لمعرفة الله عز وجل وكذا جعلها في متناول الكبار المنصفين من العلماء لاختصاصها مسائل مطولات وكذا جاء هذا النظم سلس العبارة جيد البناء لأنه شاعر بالسليقة وهذه أبيات من هذا النظم الذي ابتدأه ب:

الحمد لله الذي دل عليه إيجادنا ثم افتقارنا إليه

وبعد فالتوحيد أشرف العلوم وهو أساسها الذي به تقوم

وبعد هذه البداية التقليدية التي تحيلنا إلى منظوم الشيخ الزواوي الذي استهله بنفس المعنى [1] يستمر الحوضي في نظمه مشيرا إلى سبب وضعه له وإفادة طلاب المدارس وفتح طريق النظر أمام القارئ بدل التقليد بل إنه كان يطمح إلى أن تكون بواسطة السلوك مفيدة للأساتذة لاختصارها ووضوح عبارتها:

وقد سالت الله في تيسير أرجوزة مفهومة التعبير

قريبة المأخذ والمطالب يقرأها الصبيان في المكاتب

يخرج قاربها من التقليد ضرورة بنظر سديد

ورب منصف من الكبار بما اكتفى من أجل الاختصار

وقد انهى قوله فيما يقوله:

محمد المحمود خير الحامدين والمجتبى حب رب العالمين

عليه أفضل الصلاة والسلام ما انصدع الفجر جنادس الظلام

وقد قسم الحوضى عمله إلى فصول فكان هناك فصل في حكم العقل ..في الصفات وثالث في ما يجوز من أفعال الله تعالى والرابع في بعث الرسل وأحيانا كان عنوان الفصل بيتا من النظم.

ولقيمة هذا النظم فقد قام الإمام السنوسي بشرح منظومة الحوضي في خمس كراريس بطلب من الناظم نفسه، كما قام بشرحها أيضا محمد بن قاسم دحمان الغسانس أبو عبد الله (ت 1244هـ) من فقهاء المالكية المدرسين بالقيروان ويوجدهذا الشرح ضمن مخطوطات القرويين (شرح تهذيب نظم الحوضي في العقائد لمؤلف مجهول) ولم يقتصر الإهتمام بهذا النظم الحسن على العلماء فحسب بل إن الأمر تعداه إلى احتفاء السلاطين فنجد السلطان محمد بن عبد الله العلوي سنة 1175 هـ يحبس نسخه من نظم الحوضي مكتوب بماء الذهب في أوائل السفر ضمن شرحه وتراجمه الأولى بماء الذهب.

وله أيضا من المنظومات:

-نظم الأجرومية في رجز سماه (مفتاح باب النحو)

---

[1] _ السنوسي، المنهج السديد، ص 23.

الحمد لله وهو الواحد الأزلي سبحانه جل عن شبه وعن مثل

-تخميس القصيدة [1].

ثانيا: منظومة محمد بن عبد المؤمن الحسني الجزائري:

وهو محمد عبد المؤمن الحسني الجزائري أديب العلماء وعالم الأدباء ت 253 جمادى الآخرة 1004م وضع أرجوزة في العقائد والفروع وجعل جزاها الأول في علم الكلام وهي متكونة من 79 بيت بدأها بقوله:

يقول رجي رحمة المهيمن محمد نجل ابن عبد المؤمن

الحمد الله وصلى ربي على النبي وآله والصحب

وبعد فالقصد بهذا الرجز جمع المهم بكلام موجز

الله موجود قديم باقي مخالف للخلق بالأطلاق

وقائم نفسه وأحد ذاتا وفعلا صفة تعتقد

ثم الوجود صفة نفسية والخمسة الأخرى غدت سلبية

وأرجوزة ابن عبد المؤمن بقسميها سهلة واحدة لأن صاحبها عالما أديبا مبرزا في فنون النظم والبلاغة، وقد أجاز ابن عبد المؤمن بهذه الأرجوزة الرحالة المغربي ابن زكو ورخص له شرحها إذا أراد، ومن الواضح أن هذه المنظومة تناولت مسائل العقيدة على منوال الأشاعرة من حيث التفصيل في الصفات النفسية والسلبية والتأكيد على وحدانية الخالق ونفى التقليد والدعوة إلى النظر [2].

ثالثا: إضاءة الدجنة للمقري:

هو الإمام الأديب شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد المقري التلماساني (1041م-992هـ) وهي منظومة ألفها لبيان العقيدة وتعد هذه المنظومة من المنظومات المعتمدة لدى المدرسة الأشعرية المالكية لها شروح عديدة لعل أشهرها شرح العلامة عبد الغني النابلسي رضي الله عنه وسماه (رائحة الجنة في شرح إضاءة الدجنة) وكذا شرحها الأستاذ محمد عليش المسمى (الفتوحات الإلهية الوهبية في اعتقاد أهل السنة)قد بلغت أبيات هذا النظم حوالي خمسمائة بيتا تناول فيها أصول الدين وقضايا التوحيد أو كما يقول محمد عليش شارح المنظومة "يتأكد الكلام عليها بما يناسب العلم المبدوء بها لتأدية حقها[3]وقد ضمن المقري منظومة كل مسائل العقيدة على مذهب الأشاعرة فأورد بما فصل في النظر قائلا:

أول واجب على المكلف وأعماله في النظر المؤلف

كي يستفيد من هدي الدليل معرفة الوصول الجليل

وجاء في العرب والأخبار حث على الفكر والاعتناء

---

[1] _ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر، ج1، ص 98-100 وكذا الموقع الالكتروني:
http://www.achaari.ma/article.aspx 2014/06/02

[2] _ الموقع:.http://www.vitaminie.dz.com/articls16840

[3] _ albordy.blog por.com

فغن أن النصر الموصولا أول كما قد أصلا

فصل المعاني:

والعلم والحياة والقدوة مع إرادة الله بها العقل

لأنها لو انتفت لما وجد شيء من الصنع الذي لها شهد

يخص من أراد بالعناية فبالرسالة أو الولاية[1].

ثالثا: منظومة "محصل المقاصد":

والإسم الكامل للمنظومة هو محصل المقاصد مما به تعتبر العقائد" للإمام العلامةأبيالعباس أحمد بن محمد إبن زكريا لتلمساني المغروازي (220-889هـ) نسبة إلى مغراوة وهي قبيلة عظيمة من زناتة المانوي نسبة إلى بني مانو وهم من قبائل زناتة البربرية لقب بشيخ الإسلام والحافظ وأخذ العلم عن إبراهيم بن محمد بن علي اللنتي التازي، من مؤلفاته مسائل القضاي والفتيا" أما عن مذهبه العقدي فهواشعري.

وقد ابتدأ ابن زكري منظومته قائلا:

والله أشكر الذي قد أفهما علم أصول الدين مع أولهما

فالحمد والشكر لواجب الوجود لذاته على الذي به يجوز

من أشرف العلوم والمعارف وما به الوصول للمعارف

يحصل من دلائل الأفاق وأنفس معرفة الخلاق

وبعدها فالمقصود نظم ما نثر من جوهر التوحيد أنفس الذرر

أسلوبه في النفع مثل العسل والنفع كالبيض روق الأسل [2].

المبحث الثالث: مزايا وأساليب المنظومة الجزائرية في نشر المذهب الأشعري:

لا يتعذر على قارئ منظومة الشيخ الزواوي تلمس مزاياها الاستدلالية وعنايتها بتوطين وتوضيح المذهب الأشعري بالجزائر وفق نسق معرفي وفق نسق معرفي أذاعه الشيخ الزواوي في ثنايا هذا النظم البليغ وصرح به شارحه الإمام السنوسي بقوله: «إذ هو منظوم مشتمل على طريقي هداية الخواص والعوام لأنه قد ضم فيه إلى حلاوة النظم المستميلة للطباع تقرير الأدلة البرهانية للعقائد على التمام ثم وشحها بخطابات صوفية» [3] أي ان معتمد الشيخ الزواوي في تثبيت الأشعرية على أمرين في نظمه وهو مدار هذا المبحث بإذنه تعالى:

---

[1] _شهاب الدين أحمد بن محمد المقري، إضاءة اللجنة في عقائد أهل السنة[مكتب مخطوطات الأزهر الشريف تحت رقم 331422].

[2] _http://org.wikipedia.org

[3] _السنوسي، المنهج السديد، ص 22.

المطلب الأول: تحصل اليقين بالنظر والبرهان:

قبل التعرض لهذا المسلك الاستدلالي الذي اتبع في كل مسائل نظمه نعرض إلى المسائل التي أوردها والمبدوءة بمقدمة فيها 11 بيتا كلها ساقها في حمده تعالى واقتداء بالقرآن الكريم وسنة نبيه الكريم في تحبيدالحمد والثناء على العزيز الحكيم لتحصل البركة ومجانبة النقصان والقصور و بذكر السنوسي في شرحه للمنظومة أن الحمد هو الثناء أي القول بجميل الصفات سواء كانت من باب الإنعام أو كانت من الصفات المختصة بالمحمود ,والشكر هو الثناء مطلقا بجميل الأنعام فبينه وبين الحمد عموم وخصوص من وجه، يجتمعان فيها إذا كان الثناء قولا بجميل الإنعام ويتفرد الحمد فيما إذا كان الثناء قولا بجميل الوصف المختص بالمحمود كعلمه وشجاعته وينفرد الشكر فيما إذا كان الثناء قولا بجميل الوصف المختص بالمحمود كعلمه وشجاعته وينفرد الشكر فيما إذا كان الثناء على جميل الإنعام والإحسان بالقلب أو بسائر الجوارح غير اللسان[1].

ثم عرض بعدها (56) بيت فصل في أول الواجبات والاستدلال بالنظر في المخلوقات على طريق المذهب الأشعري فأبان خلالها مختلف الأقوال في حكم التقليد وحصول المعرفة بين اعتماد النظر والمحاكاة موردا اختلافات مذاهب الأمة من متكلمين وفلاسفة في أول واجب على المكلف وأقوال العلماء فيمن عدل عن النظرثم عمد الناظم إلى مناقشة مسائل أصول الدين مترتبة على نفس منهج من سبقه من علماء الأشاعرة بالجزائر وغيرها حيث جعل الفصول الأولى متعلقة بالإلهيات ثم النبوات والسمعيات ثم اختتمها بتوشيحات صوفية بعد هده التوطئة المتعلقة بمحتوى النظم نعمد إلى بيان أولى الميزات وهو النظر والبرهان.

-**النظر لغة** هو تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته وقد يراد به التأمل والفحص وقد يراد به المعرفة الحاصلة وهو الرؤية يقال نظرت فلم تنظر أي لم نتأمل قال تعالى [يونس 101] واستعمال النظر في البصر أكثر عند الخاصة ونظر لله تعالى وإحسانه والنظر البحث وهو أهم من القياس لأن كل قياس نظر وليس كل نظر قياس[2].

أما النظر فهو : "التأمل والتعرف والتبصير التعريف والإيضاح ورحل بصر بالعلم عالم به وتبصر في رأيه واستبصر في أمره ودينه إذا كان ذا بصرة والبصرة الثبات في الدين وبصره الأمر تبصرا وتبصرة فهمه إياه[3].

كما يأخذ المعنى الاعتبار وهو مأخوذ من العبور والمجاوزة من شيء إلى شيء بحيث يكون هو النظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها لتعرف بالنظر فيها شيء آخر من جنسها»[4].

أما البرهان فهو الحجة الفاصلة البينة، يقال برهن يبرهن برهنة إذا جاء بحجة قاطعة .للذد الخصم وبرهن بمعنى بين وبرهن عليه أقام الحجة ,والبرهان عند الأصوليين ما فصل الحق عن الباطل وميز الصحيح من الفاسد بالبيان الذي فيه ,أما عند الفلاسفة فهو القياس المؤلف من اليقينيات سواء كان ابتداء وهي الضروريات أو بواسطة وهي النظريات[5].

ولأهمية النظر في العبور إلى الحقائق فقد جعل منه الشيخ الزواوي أول واجب على المكلف والقصد إلى النظر وهو اختيار

---

[1] _ المرجع نفسه، ص 24.

[2] _ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن [مصر، د ط، دار الميمنة، دت]، ص 517، 518.

[3] _ ابن منظور، لسان العرب، تقديم: عبد الله العلايلي، إعداده وتصنيف: يوسف خياط ونديم مرعسلي، [بيروت، دط ، دار لسان العرب]، ج1، ص 219.

[4] _ فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، [بيروت، ط3، دار إحياء التراث العربي، دت]، ج29، ص 282.

[5] _ جميل صليبا، المعجم الفلسفي[بيروت، د ط، الشركة العالمية للكتاب 1414هـ-1994]، ج1، ص 45 مادة برهان

الباقلاني والجويني، أيضا في وجوب النظر على المكلف أي وجوب القصد إلى النظر والاعتبار والتفكر [1] وبهذا فالشيخ الزواوي متسق تماما مع أعلام المذهب الأشعري في احتواء وتبنى الأليات الدهنية الموصلة إلى العقائد الإيمانية وأعلاها معرفته تعالى ولذا نجده ينكر التقليد وينعي على أهله التمسك بطريق الشك والأوهام فيقول:

قد أنكر البعض تقليدا بلا نظر ولا دليل على التوحيد لم يقلّ

من لم تكن قطعا عقيدته على شفا جرف هار من الخَطَل

فلا يطيق بنا إلا اليقين به على سبيل الهدى لا غير من سُبُل

ومفاد هذه الأبيات طلب مقصد اليقين في تحصيل المعارف وأعلاها معرفة الله عز وجل التي ينبغي تحصيلها بالنظر ومجانية التقليد بدليل أن المكلف كما يذكر الشيخ الزواوي مكلف بمعرفته تعالى ومعرفة رسله الكرام وما يحصل للمقلد لا يسمى علما ولا جزما لأن الجزم لا يحتمل التقليد بوجه من الوجوه والعقد التقليدي يحتمل النقيض عند تشكيك المشكك ولذا كثر الأمر في القرآن الكريم بالتفكر والنظر فيما يحصل معرفة الله عز وجل:

من واجب أولا قصر النظر صحيح بالنظر في المخلوقات

فانظر إذا كنت ذا عقل وتبصرة فهل ترى غير خلق الواحد الأزلي

كم أية في كتاب الله ترشدنا للفكر في خلقه طوبي لمتثل

فبعضها قد أتت في اللّقط مجملة وبعضها بيّنت إجمالا لمحتمل

إذا فقد جعل الشيخ الزواوي النظر مطية لحصول العلم واليقين خاصة في باب معرفة الله عز وجل التي حرص خلالها على الجمع بين النظر في العوالم المنظورة وهو الكون وبين النظر في الكتاب المسطور وهذا ما يمكن لنا اعتباره تأسيسا لقراءة كونية توحيدية تستجمع الربط بين ثمار التفكر في خلق الله تعالى والتدبر في كاتبه الكريم بغية تحصيل اليقين بأشرف المعاني وهي الطريقة التي اعتمدها كل من الإمام الباقلاني في كتابه الإنصاف ومن بعده الإمام الجويني في كتابية "الشامل" و "الإرشاد" والتي تقوم على الاستدلال بالنص المعضد بالاستدلال العقلي [2].

فانظر لخلقنة السبع الطباق وفي عوالم الأرض من سهل وجبل

إذ قال سبحانه في أمره لهما أن إيتيا طوعا في الحين عن عجل

فافهم مضمّن باقيها وكن فطنا لما اقتضاه خطاب الله وامتثل

إذ لا ريب عند الشيخ الزواوي أن النظر في ملكوت السماوات والأرض للاستدلال والاعتبار هو من أفضل القربات وانفع شيء للقلب وابعث على الإنصاف في العلم بوجود الباري عز وجل إذ المقصود الأصلي من النظر في العوالم هو تحصيل العقائد

---

[1] _ انظر الجويني ,الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، تحقيق زكرياء عميرات[بيروت، ط1، دار الكتب العلمية، 1995]، ص 7.

[2] _ الباقلاني، الانصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق زاهد الكوثري، [بيروت، ط1، دار الكتب العلمية، 1425هـ/2004م].، ص 103 وحسن محمد الشافعي-المدخل إلى دراسة علم الكلام، [القاهرة، ط2، مكتبة وهبة، 1991م]، ص 86-89.

الإيمانية ليكون المكلف مستيقنا بها ذا بصيرة فيها وقد ركز الشيخ هنا على لفظ البصيرة وجعله شرطا لزوميا في القصد إلى النظر لضمان سلامة القلب من الاشتغال بغيره تعالى، حيث يضحي القصد إلى النظر هو توجيه القلب إليه تعالى، حيث يضحي القصد إلى النظر هو توجيه القلب إليه بصرفه عن كل شاغل يشغل عنه ومن أعظم شواغله عمارة القلب بالدنيا في حال النظر والتكبر عن سماع الحق أو تفهم ما يوصل إليه لاحتقاره وبالجملة فلا ينتفع بالنظر إلا من قصده وفرغ قلبه وسمع منه كما قال تعالى:﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ق 37، والمستفاد هنا استعانة الشيخ في نظمه الأشعري لتحصيل اليقين بتوشيح المنظومة بالمضامين الرقيقة والمواعظ اللطيفة الشفافة ليحصل بها المقصود على وجه الترغيب أيضا ,لذا فهو يبين الواجب على من أراد أن يصل إلى المعرفة أن يقصد إلى الطرق الموصلة إليها خوفا من الشبهات والطرق المختلفة التي لا توصل إلى الحق وتبتعد عن جادة الصواب في نيل المرام حتى إذا ما ظفر الناظر بمغنمه ألزم نفسه بالصبر وحبس عقله على التنقل بالفكر في ذلك الطريق الصحيح من جزء إلى جزء آخر حتى يأتي على أجزاء ذلك الطريق لا ينتقص منها جزءا واحدا.

ثم يمضى الشيخ في نظمه مؤكد على مسلك النظر في تحصيل اليقين قائلا:

وقد مضى القول في وجه الدليل بها قد أنزل الله نصّا غير محتمل

فباعتبار بمخلوقاته قطعت ذوو النهي بوجود الخالق الأول

لكن ذا الجهل كالأنعام مهملة من يضلل الله للتوفيق لم ينل

فاعلم بأن وجود الله قد شهدت به البراهين فلنقصر ولا نطل

فكيف يخفي وجود الله يا عجبا لجاحد من ظلام الكفر في ظلل

لو لم يكن هو لم توجد ولا وجدت أنواع مخلوقاته المرء ئ بالمقل

فواجب كونه قطعا بلا عدم سبحانه وتعالى جلّ عن مثل

فهذه إشارة من الناظم إلى أن الطريق المفضي إلى معرفة وجوده تعالى هو الاعتبار في مخلوقاته تعالى أي النظر المفضي إلى معرفة وجوده وهو الاعتبار في مخلوقاته عز وجل أي النظر فيما يقصد استفادة معرفة الله تعالى، ووجه الاستدلال في النظر والاعتبار هنا هو أن ينظر فيها فيجد كل واحد منها لا ينفك عن أمر الحدوث بمقادير مخصوصة وكذلك صفات مخصوصة، تفتقر في وجودها إلى غيرها لأنها كلها تدخل في حكم الجائزات وليست الواجبات ومن المعلوم أن كل ما لا ينفك عن الحوادث فهو حادث وبالجملة فالطريق إلى معرفته تعالى هو معرفة حدوث العالم المخلوق بما فيها النفس:

وفي النجوم اهتداء ثم زينتها من لم يفكر بنور العقل لم ينل

ثم الرياح جبال السحاب سائقة والرعد والبرق يغشى ناظر المقل

كيف تكون لها في الأرض منفعة إذا لم تقض دفعة فيها ولم تسل

ليحصل الريّ في سهل وفي جبل تغربل السحب ذاك الودق في مهل

وانظر لنفسك أيضا هل ترى خللا وهل ترى منك عضوا غير معتدل

من نطفة بين القرآن خلقتها فانظر مضمّن باقي الآي وامتثل

لحم وعظم صليب شد عصا والنفخ للروح سر عنه لا تسل

سر من الأمر جل الله خالقه وإنما خاض فيه القوم بالجدل

قد كرر الله في القرآن نشأتنا للاعتبار ولكن نحن في شغل

وفحوى هذه الأبيات يحيلنا إلى الدليل النفسي على وجوده تعالى عند مؤسس المذهب الأشعري وهو أبو الحسن الأشعري الذي عد أول من استعمل هذا الدليل في كتابه اللمع، انطلاقا من النظر في خلق الإنسان كما يحيلنا أيضا على آيات كثيرة في القرآن الكريم بشأن النظر و التفكر في أحوال خلق الإنسان[1]، وهذا هو منهج الشيخ الزواوي في الاعتماد على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فلا نكاد نجد بيتا إلا هو يشرح نصا قرآنيا أو حديثا نبويا شريفا وهذا نلمحه في كل أبيات النظم فنجد مثلا البيتين:

إذ قال سبحانه في أمره لهما أن إيتيا أتتا في الحين عن عجل

قد أمسكا في هواء دون ما عمد كما أن ذاك في الذكر الحكيم تل

فهما شرح لقوله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فاطر 41 وذلك الرعد

حقيقة الروح ثم النفس نحملها كذلك العقل فينا غير منعقل

فهذا البيت استنباط من قوله تعالى:﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء 85.

وكذلك الحال بالنسبة للأبيات التي أوردناها بخصوص الدليل النفسي فهو مستنبط من قوله تعالى:﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾الذرايات21. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ المؤمنون 12-14حيث ارتكز الشيخ في هذا الاستدلال على بيان دلالة أحوال الإنسان في افتقاره إلى موجده وتقلبه في الأطوار من ذلك أن النطفة التي هي أصل النشأة جسم مائع يقبل في نفسه من المقادير والضمان والأشكال مما يقطع بدلالتها على حدوثها ووجوب احتياجها إلى الفاعل المختار المرجح ما شاء من الجائزات على غيره بمحض الإرادة والاختيار في تنقلها من حال إلى حال مع جواز أن لا تنتقل إلى تلك الأحوال أصلا أو تكون على خلافها أو تكون المدة التي يحصل لها الانتقال فيها من طور إلى طور أكثر من تلك المدة التي أجرى الله تعالى العادة بتنقلها فيها أو أقل ثم يمضي الشيخ الزواوي مسترسلا مع الدليل النفسي فيشير إلى ملاحظة اللحم والعصب والعروق والعظام ومختلف الصور والمقادير كلها إذا

[1] _ أبو الحسن الأشعري، اللمع، تحقيق: غرابة، [مصر، دط، 1955]، ص 17، 19.

نظر إلى أحوالها فإنه يحصل العجب من ذلك الاعتبار وإن كانت لا تبدو إلا في يسير جدا مما أودع في الأنفس من عجائب الخلق على جوه كثيرة من الدلالة على وجوده تعالى وسعة قدرته ونفوذ إرادته وعدم تناهي علمه وحكمته وخفي ألطافه وعموم إحسانه [1].

وكما هو شان الشيخ الزواوي في اتساقه مع المذهب الأشعري وورود دلالة ألفاظه على النحو الذي يؤسس به نسقا برهانيا مقررا للعقائد الإيمانية نجده يتفق تماما مع تلميذة السنوسي في استدلاله على وجوب الإيمان بوجوده تعالى الذي هو أساس العقيدة الإسلامية وجوهرها اعتمادا على دليل حدوث النفس، وتعتمد هذه الدلالة من جهة على ما يعرض للإنسان في حياته من أطوار كما تعتمد من جهة أخرى على أنه خلق في أحسن تقويم وهذا يعني أن هذا النسق الاستدلالي في فكر الشيخ إنما يقوم على وجوب النظرفي أقرب الأشياء إلى الإنسان التاي هي النفس فتعلم على الضرورة أنك لم تكن ثم كنت وأنه لم يكن ذلك لولا افتقارك إلى مولاك [2].

وبإمكاننا تعميم مسلك النظر والبرهان على جميع مسائل العقيدة ومنها الإيمان بالنبوة:

إن النبوة فضل غير مكتسب بل خصها الله بالمخصوص في الأول

بالمعجزات من المولى تؤيدهم مهما أتى الوحي بالتبليغ للرسل

وهذا يعني أن دعوى النبوة لما كانت تقع من الصادق والكاذب فإنه تعالى تفضل بأن أيد بفضله .الصادق بما يدل على صدقه وهذا الذي أيدهم به عز وجل به للدلالة على صدقهم هو ما يسمى في اصطلاح المتكلمين بالمعجزة ولا يدرك دلالة المعجزة إلا من حقق أركانها بمعرفة توحيد الله تعالى ومعرفة صفاته ولهذا ما أ نقاد منكر والنبوات في مسلكهم إلا من جهة الجهل بأركانها فقد يجهل أن الخارق للعادة فعل لله تعالى ولا يعتقد الصانع المختار بل يعتقد صدور العالم عن علة أخرى غيره تعالى كنفوس الأفلاك لجهلهم بمعرفة الله تعالى ووحدانيته وقد يعتقد أنه ليس خارقا للعادة وأنه مما يجوز التوصل إليه بالحيل والغوص في العلوم أما من هدي لمسلك الحق وعرف بما تقرر عنده من التوحيد أن الذي وقع به التحدي فعل لله تعالى وهو عالم بدعوى المتحد إما بمشاهدته أو بالعقل المتواتر وعرف أنه لا يتوصل إليه بالحيل فإنه وقف على الإيمان الصحيح وهذا يحكم الشيخ الزواوي الربط بين الإيمان بوجوده تعالى والإيمان بالنبوة على أساس اليقين بوجوده تعالى المبني على النظر والبرهان المنافي للتقليد [3]في هذا أيضا نجده متسق مع الاتجاه العام للمذهب الأشعري يظهر ذلك من خلال استدلاله ببعض كتب أعلام الأشعرية بالجزائر في قوله:

من كان للمعجزات الغرّ في ظماء ففي كتاب الشفا [4]ري من الغلل

فالله يجعلنا من خير أمته مؤمنين بلا روع ولا وجل

---

[1] _ السنوسي، المنهج السديد، ص 123، 124.

[2] _ المرجع نفسه، ص 141.

[3] _ السنوسي، المنهج السديد، ص 319، 320.

[4] _ القاضي عياض، الشفا، تحقيق: أمين قوة على ,د أسامة الرفاعي [ط2، مؤسسة علوم القرآن، 1404هـ-1986]، ج1، ص 23، 24 لقد كان لهذا الكتاب صيت ذائع بالمغرب والجزائر خصوصا حيث ذكر المقرى في ديوانه أن كتاب الشفا كان ذو شأن عظيم ولا يخلو منه بيت للعلم والبركة,بن خريف ,تحقيق كفاية المريد,ص,60.

بإمكاننا أن نميز داخل مفهوم الاتساق الذي يسم نظم الشيخ الزواوي مسعى جوهري وهو تحصين مسائل العقيدة وتعضيدها بالمزاوجة بين الدليل العقلي والدليل النقلي الذي هو أساس ومرجح الدليل والحجة العقلية مؤكدا خلالها على قوة الربط بين علاقة مسائل العقيدة بالاستدلال العقلي حيث تكمن قيمة العقل في قدرته على القيام بمهمة الاعتبار والبرهان في الاستدلال على مسائل العقيدة، على وجه اليقين أو ما أشار إليه شارح المنظومة الإمام السنوسي بعبارة تقرير الأدلة البرهانية للعقائد خاصة والشيخ الزواوي يعد البرهان أحد أقسام الحجة العقلية.

المطلب الثاني: توشيح الأدلة العقائدية بالمعاني الذوقية

تعد هذه الميزة عاملا مهما في تعزيز دور المنظومة وانتشار مبادئها بالمغرب والجزائر خصوصا والشيخ الزواوي يدرك تماما أن العقل ليس هو الدافع الأوحد في توجيه سلوك الإنسان وجميع اختياراته بل ثمة منطقة أخرى أكثر خطورة وأشد عصيانا على البناء النفسي والعقلي للإنسان وهي الأهواء والأغراض خاصة وعصر الشيخ يعايش زمنا متلاطما بألوان من الطرق الصوفية منها المخلص للأمانة.التوحيد والعبادة ومنها المستترة المتكالبة على المغارم الدنيوية من حضوة عند سلطان أو مكسب عند ذي مال في عصر راج فيه الصراع على السلطة فاشتدت الفتن وكثر الهرج في أحوال البلاد والعباد التي أضحت تشهد أدعياء العلم ومعاداة العلماء لبعضهم البعض ولأجل ذلك قوي عزم الشيخ الزواوي على محاربة الهوى وهو يؤسس للعقائد الإيمانية بأدلتها البرهانية القطعية.

ولعل قارئ المنظومة لا يستطيع إحكام الوصل بين ما تقدم من سعي الشيخ نحو تأسيس العقائد الإيمانية على القناعة العقلية وبين ما تم تدبيل النظم به من توشيحات صوفية لكن الأمر يتضح إذا ما علمنا مراده من طبيعة آخر النظم وشحنه بالمعارف الذوقية فهو وإن لم يناسبه مناسبة خاصة فهو يناسبه على وجه العموم من حيث أن معرفة الله عز وجل القائمة على النظر وذم التقليد واعتبار النظر أول الواجبات من ثمارها الطبيعة تزكية العمل السلوكي وهذا يعني أن الشيخ الزواوي لا يرى في المقصد إلى النظر سوى المعرفة بالله المؤدية إلى طيب الأخلاق والسلوك وهذه هي النظرة السلمة التي يبتغيها ربنا الكريم من أهل التوحيد والإيمان ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ البقرة .25وهذا دليل على ما تثمره معرفة الله عز وجل ومعرفة صدق رسله عليهم السلام لمن تأمل واستبصر فيجني بذلك المؤمن من ثمرات ما حصل له فيما سبق من إيمان ويرتقي بفضله تعالى إلى درجات أولياء الله تعالى الفائزين بأعلى مقامات الإسلام والإيمان والإحسان وذلك بقطع فروع الشرك والتكذيب.

إنّ النواهي جاءت غير واحدة كذا الأوامر لا تحصى لمتثل

فلازم العلماء العاملين به واسلك طريقهم وإن جهلت سل

أي أنه من الواجب على الموحدين بعد معرفة التكاليف أن يتشمروا للنهوض بالقيام بها والعمل بمقتضاها فلا يشغله عن ذلك شاغل من حيث أن الموت دائم القرب منه فليحسن الاستعداد بإعطاء كلمة التوحيد حقها من حيث استجماعها لكل مضمون العقائد من جهة ولأنها تنطوي من جهة أخرى على كل لمحاسن التي تنير القلب بأنوار اليقين [1] .

وفي هذا نجد الشيخ يتفق تماما مع تلميذة السنوسي في توضيحه المقصد من الذكر الذي يقوم على جانبين جانب نظري وعملي فالأول هو الأصل وأعلى مراتبه توحيد الله ونفي الشريك وإثبات نبوة محمدﷺ واجتهاد العقل بالنظر وطرح التقليد في نطاق

[1] _ السنوسي، المنهج السديد، ص 462.

ما يجب لله عز وجل وما يستحيل وما يجوز وكذلك بالنسبة للرسالة أما الوجه العملي فهو دخول الممارسة الذوقية لبلوغ الثمرة والفوز بالنتيجة التي لا تتحقق إلا بطريق شرف الأصل وهو التوحيد واستقامة النتيجة وشرطها ثبات المقدمات وهي أحكام العقل [1].

وهذا بالضبط ما حرص نظم الشيخ عليه من حيث غرس الإيمان يقينا في تربية العقل ليتوافق الإسلام مع الإيمان ولينتفى التناقض الحاصل بين إدعاء الإسلام والتقاعس عن أداء حقه بالأعمال فكثير هم من عاصروا الشيخ وكانوا من العلماء الذين اتخذوا علمهم مطية للتقرب من الجاه والسلاطين والتجادل فيما بينهم على متاع الدنيا وهذا كله مرده إلى إتباع الهوى الذي حذر منه الشيخ الزواوي بقوله:

جاهد بجد عسى بالله تغلبها لله درّك إن جاهدت من رجل

فحّظها غير ما يعنيك تتركه بذا استعان عليها كل ذي عمل

فكن حزينا كسير القلب ذ اوجل إياك والكبر فيه أعظم الزلل

وبالنظر إلى مضامين النظم نلمس انشغال الشيخ بتحقيق الموافقة بين المعارف العلمية والضوابط العملية في سلوكات النفس الإنسانية لأن الغرض من كلمة التوحيد هو تنقية النفس وحبسها عن إتباع الهوى بملازمة أركان الإيمان لأن الإيمان وإن كان مطلوبا لذاته باعتباره الحقيقة الكبرى فإنه يطلب أيضا لما ينتج عنه من آثار التوفيق والصلاح[2] وهذا المعنى الأخير نجده واضحا عند الإمام السنوسي قي قوله «ويعد بيان العلم الشريف التحريض في آخره على حسن العمل وذكر ما يبعث العاقل على الحد فيما يحصل ﷻ عز وجل»[3].

ولتحصيل الرضا بعمق الشيخ الزواوي أصل المجاهدة في النفس ويجعله فطامها عن المألوفات وحملها على غير هواها والنفس بدورها تحوز صفتين الأولى: وهي الانغماس في الملذات والعصيان عن إتباع الطاعات فحين تجنح النفس بإتباع الهوى يجب ردها بلجام التقوى لذا يجب على كل من يريد تحصين عقائده الإيمانية أن ينهض كل النهوض بقواه العلمية والعملية لجهادها وهو ينوي الامتثال لأمره تعالى حتى تكون كلمة الله تعالى هي العليا بإخلاص العبادة له في الظاهر والباطن.

بعدها يمضي الشيخ الزواوي في توضيح سبل تحصيل الرضا والتقوى قائلا:

أمسك لسانك تسلم من غوائله بالصمت ثم متى لم يمكن انعزل

قد جاء في أثر تشبيهه سبعا فهما اعتدى لم يذر شيئا ولم يقل

وليس يهمل ذو التقوى جوارحه كالعين والسمع في صبح وفي أصل

إن يصلح القلب فالأعضاء صالحة لأنه ملك مهما يمل تمل

ولترض ولتصبرن مهما ابتليت تنل رضا الإله وإلا خرت لم تنل

---

[1] _جمال الدين بوقلي، الإمام ابن يوسف، ص 7.

[2] _البوطي، شرح الحكم العطائية[دمشق، ط1، دار الفكر، 2001م]، ج1، ص 210.

[3] _ السنوسي، المنهج السديد، ص 22.

بوضح الشيخ أن المكلف عليه من جهة الشرع وظائف تتعلق بباطنه وعليه أخرى تتعلق بظاهرة ولا يكون ممتثلا طيبا مستقيما حتى يقوم بحقوق الله تعالى في ظاهره وباطنه ومن الوظائف المتعلقة بالظاهر اللسان والأذن والرجل واليد....أما اللسان فهو أشد الأعضاء على الإنسان وأهلكها وهو يأتي في الرتبة الثانية لا نقسام الإيمان بينهما شطرين، إذ يتوجب اعتقاد بالجنان وإقرار بالسان وكذا الكفر والردة يكون فيهما أما العين فهي سهم قاتل تجلب للقلب كل فتنة فيجب قصرها عن المحرمات وعن كل ما يخشى[1] لقول تعالى:﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ النور 30.

كما لا يخفى من تعاظم وزر فضول النظر وفساده وكفى به تحذيرا لمن خاف مقام ربه فيعز بها عن كل قبيح أو ما يؤول إلى قبيح ويحفظهما من كل ما لا يعنيه لأنه يؤثر في القلب بوساوس وخواطر مشغلة عن الحضور في فرضه ونفله لذا يجب أن يعز بصره وسمعه عن كل حرام والتزام أمرين أخرين وهما مقامي الصبر والرضا وتوطين النفس عليهما توطينا صادقا بترك الاعتراض ظاهرا وباطنا أمام إرادته تبارك وتعالى وألا يتوجه إليه إلا بجميل الثناء وعظيم الرضا.

مما سبق بيانه نخلص إلى قيمة المسالك الاستدلالية والمزايا التي تضمنها نظم الشيخ الزواوي من حيث دقيق الربط بين العملية العقلية المبنية على النظر في العوالم والأنفس لتحصيل اليقين وبين حماية وتحصين ذلك الإنشاء العقلي من خلال شحنه بالمعارف الذوقية وهو يعتبر في فكر الشيخ لب كلمة التوحيد.

الخاتمة:

في نهاية هذه الدراسة نخلص إلى جملة من النتائج

-يعد الشيخ أحمد بن عبد الله الزواوي من أهم أعلام المذهب الأشعري الذينُ أثروا الوضع الثقافي عامة والمجال الكلامي خصوصا خلال القرن التاسع الهجري بكل سمات الاضطراب السياسي والاجتماعي الذين عرفها العصر

- لم تكن بلاد المغرب الإسلامي بمعزل عن الاتجاهات الكلامية ولا المدارس العقدية بكل فعاليات الحركة الفكرية وخاصة المذهب الأشعري الذي عرف طريقه إلى بلاد المغرب حتى في عصر المؤسس نفسه كمعرفة علم وإحاطة لا تتعدى الأفراد لكن بظهور شخصية المهدي بن تومرت ثم إعلان هذا المذهب بالمغرب عموما والجزائر خصوا بفضل أعلام كثر منهم نموذج الدراسة الشيخ الزواوي.

[1] _ السنوسي، المنهج السديد، ص 538، 539.

-أسهم الشيخ الزواوي بمنظومته (الجزائرية)في نشر وتثبيت الأشعرية بالجزائر بفضل شروحها وعناية رجالات العلم بها الأمر الذي مكن لها الانتشار.

-لقد كان للمنظومة الجزائرية وغيرها من المنظومات التي كتبت بأقلام جزائرية دورا كبيرا في الدفاع عن الأشعرية.

-اعتمدت المنظومة الجزائرية على المزاوجة بين مسلك البرهان والاستدلال والمسلك الذوقي من أجل شرح وتبليغ الآراء العقدية للمذهب الأشعري في تركيز شديد على بناء كل تلك المسالك على مبنى كلمة التوحيد.